التطور في الفنون البدائية :

يرتبط تطور الفنون البدائية بممارسات الانسان منذ ابجدياته الاولى في التفكير واكتشاف العالم ، بما يمكن معه تطبيق قانون التحدر على الفنون البدائية كأنموذجاً لتفسير نشاة الفنون وتطورها من الاشكال البسيطة الى الاشكال المركبة والاكثر تعقيداً وهنا يقاس تطور الفنون البدائية نسبة الى ما صنفته الدراسات الاركيولوجية من تقسيمات لعصور ما قبل التاريخ بدأً من العصر الحجري القديم الى الوسيط والحديث فرغم ما عرفت به هذه المراحل من بساطة هندسة الاشكال الا انها تضمنت مراحل تطورية تتبع حركة الطبيعة ومقدار الخبرة والتجريب .

ان العصور الحجرية عموماً كحقبة مبكرة لحركة الفكر الذي لم يتوصل حينها الى معرفة اللغة و الكتابة ، والتدوين فقد كانت الرسوم عُدة الانسان للتعبير عن نفسه ورغباته في ذلك تبرر النظريات ممارسات الفن وفق افتراضين:

الاول يتعلق بجانب برجماتي يضع الفن في خانة المنفعة المادية الحياتية او الدينية السحرية اذ اقرت عدد من الابحاث العلمية بأن الرسوم الجدارية في العصور الحجرية ممارسة سحرية تنشد الاستحواذ على الحيوانات بوصفها مصدر غذاء وكذلك مصدر خطر " فالفن كضرورة رافق دائما ضرورة الدين ، ذلك البحث عن المطلق والمجهول والخوف من الخفي السحري ، والسؤال عن المصير . هي كلها من عناصر الشعور بالوجود ... وكان لا بد للفن ... من ان يساند تلك العقيدة الراسخة في ضمير الانسان : فكانت رسوم السحرة في اورانج ، ورسوم الكف في مغارة غارغاس والحيوانات المثقبة للسيطرة عليها ... دليلا ثابتا على سيطرة السحر على التفكير الانساني منذ الانسان القديم" [١] اما الثاني فيتعلق بجانب استاطيقي – ميتافيزيقي يرتبط بالمعتقد الديني وروح الجماعة والانتماء حيث توصلت عدد من الدراسات الى ان الفنون البدائية بما تتضمنه من جانب نفعي لكنها لا

[١]) رستم ابو رستم : الموجز في تاريخ الفن العام ، المعتز للنشر والتوزيع عمان - الاردن ص٦

تخلوا من ابعاد جمالية تنشد تحقيق المتعة البصرية كما في رسوم الكهوف القائمة على محاكاة اليد البشرية ورسوم الحيوانات في كهوف لاسكو – فرنسا وما تتضمنه من تعبيرات وتناسق وحركات ايقاعية [١]

ان تطور الفنون البدائية ارتبطت بعلاقة وثيقة مع الطبيعة من جانب وخبرة الانسان من جانب اخر ان فالانسان البدائي في تطوره الحضاري قد مر بمرحلتين متتاليتين ، الاولى مرحلة جمع الطعام و استمرت خلال العصرين القديم والأوسط اما الثانية مرحلة إنتاج الطعام حينما توصل وبطريقة الصدفة للزراعة وتربية الماشية حيث قادت هذه الانتقالة الى تغير في إيقاع الحياة ، ففي فنون العصر الحجري القديم منذ حوالي ٤٠٠٠٠ سنة اتسمت الفنون بالبساطة بما تحمله تلك المرحلة من فقدان التنظيم والاستقرار ومقاومة الطبيعة وخطرها لكن ثمة محاولة للتكييف مع هذه الطبيعة من خلال محاكاة مفرداتها على اسطح الصخور وجدران الكهوف بدأً من بصمات الكف البشري شكل (١) الى رسم الحيوانات التي شكلت المادة الاولية لنتاجات الانسان فصورها تصويراث تعبيرياً راصداً حركاتها بصورة اقتربت من شكلها الطبيعي كمحاولة للسيطرة عليها وقد صورت بتقنيات مختلفة كالحفر على الصخور شكل (٢) او تلويها بلون واحد غالبا ما تكون خطوط خارجية باللون الاسود شكل (٣) ولم يكتفي الانسان بقوة الخطوط والتحديد الخارجي بل توصل الى تلوين جسم الحيوانات كخطوة نحو التجسيد شكل(٤)

شكل (١)

شكل (٢)

شكل (٣)

شكل (٤)

وفي مراحل متقدمة من العصر الحجري القديم استخدم الانسان البدائي التدرج اللوني لايجاد تجسيدات اقرب للواقع وتتضح في تلك المرحلة مدى التطور الذي أحدثته طريقة استخدام اللون لإنتاج مساحات لونية متعددة الألوان والدرجات أو التظليل كوسيلة للتجسيم، فاستخدام اللون بهذا الأسلوب أعطى الشكل تجسيماً لم يكن معهوداً مسبقاً شكل (٥) اما العصر الحجري الوسيط فهو مرحلة انتقالية حملت شيء من بقايا العصر الحجري القديم وكذلك الحديث وكما اكد عدد من علماء الانثروبولوجيا بأن التحول نحو الزراعة وتربة الماشية لم تأتي فجاة

[١] اشرف العريني : بدايات الفن في عصور ما قبل التاريخ ، ام القرى للنشر والطبع والتوزيع ، ص ٨ -١١

بل عبر اجيال عديدة على ان التغيير في تلك الفترة يبدا من التحول نحو الموضوعات السردية لمشاهد يومية تعلق بالصيد والرعي كذلك يبدو التطور هنا على مستوى الحركة فاغلب مصورات مصورات الابقار والغزلان اخذت وضع الحركة والجري شكل (٦)

على انه في اواخر العصر الوسيط . أخذت الرسوم تتجه نحو المبالغة والتحوير ، وذلك لاختلاف النظرة إلي الحياة وتغير الأساس الاقتصادي وتطوره حيث بدأ الإنسان يميل إلي استئناس بعض الحيوانات ويدرك بدايات الزراعة ، ويتعلم صناعة الأواني الفخارية حيث أخذ يطور رسومه بما يتناسب مع أسلوب معيشته المتجهة نحو العصر الحجري الحديث ، وما حدث فيه من الانتقال من الاقتصاد الاستهلاكي إلي الاقتصاد الإنتاجي وما نتج عنه من مبالغة وتحوير كتمهيد لمرحلة الرسوم الهندسية ، وبذلك "فلم يكن هذا التغيير انقلاباً مفاجئاً لا في الفن ولا في الاقتصاد ، بل انه قد حدث بالتدريج في كلا المجالين [١] حيث قام الفنان البدائي في تلك الفترة بإهمال وحذف بعض العناصر أو الأجزاء ، ويظهر ذلك في عدم اهتمامه بتصوير الإنسان مقارنتاً بتصوير الحيوان حيث عبر عنها بأشكال مكرره بسيطة إلي أقصي درجة غير معبرة عن أي ملامح. شكل (٧) وكذلك لجأ الانسان البدائي الى إطالة بعض الرسوم ليؤكد علي أهميتها، وأحيانا يؤكد علي الناحية الوظيفية فمثلا كان يطيل من سيقان الأشخاص لتدل علي سرعتها، وأحيانا يضخمها لتوحي بالقوة .

وقد انتقل الانسان البدائي الى مرحلة اعلى من التحوير وصولاً الى بناءات هندسية للاشكال مع عصر الثورة الانتاجية خلال العصر الحجري فبالغ في تبسيط الشكل الطبيعي حتى أصبحت رسومه للكائنات الحية سواء كانت آدمية أو حيوانية أو نباتية ، تميل الى التجريد والاختصار كما في تمثال الهة الخصب التي نفذت بعنق طويل مع حذف الرأس وتضخيم المناطق الانثوية تاكيداً على الفكرة شكل (٨)

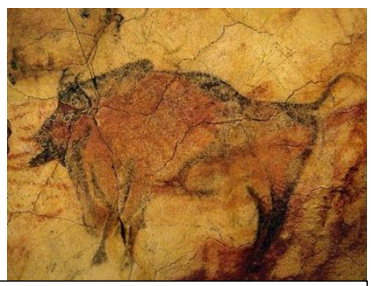

شكل (٥)

شكل (٦)

شكل (٧)

شكل (٨)

[١] ايمان محمد عبد الرزاق : تأثير أسلوب حياة الإنسان البدائي علي السمات الفنية لرسومه التعبيرية ، مجلة كلية التربية – جامعة بور سعيد ، العدد التاسع ، ٢٠١١ ، ص ١٥٢